◆ طوق الحمامة يسبق إلى تشريح الحب

تظل كتابة المستشرق الهولندى الأستاذ «ريتهارت دوزى» جيدة مستقيمة ، حتى يلم بميزة بارزة للإسلام فينحرف !

لقد ذهب فى الجزء الثالث من كتابه عن تاريخ المسلمين فى أسبانيا إلى أن ابن حزم قد عرف الحب العذرى العفيف وتذوقه لأنه من أصل مسيحى فى زعمه ، ولأن عرق المسيحية العفيف قد نبض فيه برغم إسلامه فجعله ينحو منحى العفّة ، شاذًّا بذلك عن بقية المسلمين !! وجاء من المستشرقين من أيده وسانده ، ومنهم الأستاذ «ماسينيون» وهو من أعمق الدارسين للحب الإسلامى - صوفيًّا وعذريًا - فماذا نقول فى ذلك ؟! لو كانتْ مسألة العفة فى الإسلام من الأمور المتشابهة التى تلتبس فيها الآراء وتحتاج إلى مجهر دقيق يبرز ما استتر من النصوص والأحداث لعذرنا دُوزى وماسينيون فيما ذهبا إليه من التفسير ، ولو كان المستشرقان الكبيران ممن لم يتعمقوا هذه النصوص الصريحة ولم يتبينوا الوقائع المشاهدة لقلنا عنهما لقد فقدا الدليل وأعوزهما البرهان ، ولكن الحب العذرى فى الإسلام برجاله وأحداثه وأشعاره أوضح من أن يدل عليه ، وأشهر من أن يجعله مبتدىء ناشىء يتلقى الدراسة الأولى فى الثقافة الإسلامية ، بل إن كتاب طوق الحمامة الذى جعلهما يصدران هذا الحكم الجائر ليضم فصلين طويلين عن قُبح المعصية وفضل العِفَّة فى الإسلام ، وبهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يكفى لإيضاح رأى الإسلام فى التمسك بالفضيلة والشرف والعفاف ، فلو أن الأستاذ دوزى - على سبيل الجدل - لم

يقرأ شيئًا عن تعاليم الإسلام وقرأ هذين الفصلين وحدهما لكان جديرًا أن يبطل رأيه فيما ادعاه ، فما ظنك بماسينيون – وأبحاثه عن التصوف الإسلامى والحب الإلهى ذائعة مستفيضة ؟ – أنفترض بعد ذلك كله أنهم حَكَمَا على كتاب ابن حزم دون أن يقرآه ؟ وأن الأستاذ ماسينيون تكلم عن الحب الإلهى فى الإسلام دون أن يعرف عن أصحابه شيئًا ؟ ذلك أهون بكثير من أن نصمهما بسواه .

لئن كان الحب العذرى نبع فى الجاهلية لدى «المرَقَّش الأكبر» وأضرابه ، ممن هدتهم الفطرة العربية إلى الطهارة النبيلة ، والشرف الأثير ، فإن ما ولى ذلك من دعوة الإسلام المتكررة إلى العفاف والصون ، ومحاسبة النفس ، ورقابة السماء ، قد أكدت هذه المعانى ، وجعلت لها أناسًا وقبائل وبيوتًا تنسب إليها ، وتشتهر بها ، وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الجهاد بقوة ، فإن الجهاد الأكبر «جهاد النفس ، ومصارعة الأهواء» كما يقول الرسول الكريم ، وبهذه التعاليم المثالية أصبح العفاف مبدءًا إسلاميًّا قوى الدعائم ، وصارت الطهارة والمروءة والترفع من سمات هذا الدين العفيف ، وتحدث التاريخ لدينا عن جماعة من العشاق تتأجج أشواقهم فى صدورهم ، ثم لا يهمّون بشىء ، دعايةً للشرف ، وامتثالاً لقواعد الإسلام ، كان «عبد الرحمن بن عَمَّار» – المعروف بالقَسِّ – عابدًا متنسكًا ، وقد أوقعه حظه فى «سَلاَّمة» المغنية ، فبادلته حبًّا بحب ، حتى اشتهرت به ، فقيل عنها «سَلاَّمة القَسّ » ، فقالت له : أنا أحبك ! فقال لها : وأنا والله كذلك ! قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخالٍ ! فقال فى إشفاق : لقد تذكرت قول الله عز وجل : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وأنا أكره أن تنقلب خِلَّتُنَا عداوة يوم الحساب !

وبزح الوجد بعروة ابن حزام ، فقادته أشواقه إلى منزل صاحبته ، ونزل ضيفًا على زوجها بالشام ، فأكرمه وأحسن وفادته ، ثم خرَج وتركه مع عفراء يتحدثان ، فلما خلوا تشاكيا ، وطالت الشكوى وهو يبكى أحر بكاء ، ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخَلَ جوفى حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللتُ حرامًا لكنت قد

(١) الزخرف : ٦٧ .

استحللته مِنْكِ ، فأنتِ حظّى من الدنيا ! .. ولعل من البداهة أن نشير إلى حديث رسول الله : «سبعة يُظلهم الله .....» ، وفيهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إنى أخاف الله .

وقد كنا على أن نفيض فى أمثال : عبد الرحمن القس ، وعروة بن حزام ، وقيس بن الملوَّح ، وعروة بن أذينة ، وتوبة بن الحمير ، وجميل بن معمر ، وكُثَيِّر عَزَّة ، وسواهم من ذوى الحب العفيف ، ولكن كتب الأدب تزدحم بذلك مفرقًا فى الأغانى ، ومتصلاً فى كتاب ذمّ الهوى للإمام ابن الجوزى ، بحيث أصبح الحب العذرى فى الإسلام موضوعًا كبيرًا له أبطاله ووقائعه وأشعاره ، ولن يجرؤ أحد على القول بتأثر العذريينَ فى دولة بنى أُمية بالحب الأفلاطونى ، إذ لم تكن إذ ذاك صلة ما بين العرب واليونان .. فالحب العذرى مرتكز لا محالة على مبادىء الإسلام .

والحق أن اتجاه طوق الحمامة الفريد إلى تحليل الحب والسموّ به على نحو طريف لم يعهد قبله فى الأدب الأوربى قد دفع دوزى إلى رأيه ، ليجعل ابن حزم متأثرًا بالمسيحية لا بالإسلام فيما يصدر عنه من قيم وآراء ، ولكن ذلك شىء والحق شىء آخر ، يقول الأستاذ زكى مبارك فى النثر الفنى[1] :

«لقد طُبع كتاب طوق الحمامة فى لندن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بتروف ، وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة فى أوربا ، وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل ، وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابًا أُلف فى فن الحب قبل ذلك الكتاب ، لا فى اللغات القديمة ولا فى اللغات الحديثة ، لأن أوربا فى القرن العاشر الميلادى كانت معارفُها قليلة جدًّا فى الشئون الوجدانية ، فكان من المستظرف حقًّا أن يكشف الباحثون أنه كان فى ذلك العصر كاتب عربى يتناول حديث الحب والعشق والهيام فى تفصيل شائق جذاب ، هو آية الآيات فى فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب » .

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ج ٢ ص ١٦٦ .

لم تكن للمرأة الأوربية فى عصر ابن حزم – إلى قرن بعده – منزلة رفيعة تدعو إلى التسابق فى استرضائها ، فالمجتمع الأوربى إذ ذاك لا يراها إحدى عناصره المؤثرة ، ولا يجد فى محاسنها الخالية ما يلهم أحاسيس كُتّابه ، ويذكى مشاعر شعرائه ، فيقدمون لها تراتيل الولاء والحب فى نغم ضارع لهيف !. نعم قد تحدث الأدب اليونانى قديمًا عن الحب ، وأشاد به أفلاطون ، وبرزت قصص الإغريق مضمخة بعبير المرأة أحيانًا ... ولكن صدى الإغريق قد انقطع عن أوربا فى العصور الوسطى حتى هبت نسمات العرب من الشرق تحمل أنباء الفروسية العربية ، ومن تقاليدها احترام المرأة ، وتمجيد الحب الطاهر ، والارتفاع بالغرائز إلى أوج الشرف والفضيلة والعفاف ، ثم انتقل التأثير الأندلسى من كتابة ابن حزم العاطفية ، فوجَّه العيون إلى طراز جديد من العواطف ، ودعا الكُتَّاب إلى ممارسة فن جديد من الكتابة ، وكان أندريه لوشابلان ، فى منتصف القرن الثانى عشر للميلاد أول من كتب فى ذلك ، فأصدر كتابه «فن الحب العَفِّ» ، وقد تعرض له الناقد الفاضل الدكتور محمد غنيمى هلال بالتحليل ، فقال عنه فى كتابه الأدب المقارن[1] :

«..... وفيه يذكر إدراكًا للحب لم يكن لأدب الأوربى به عهد حتى ذلك القرن ، وفيه ترتفع المرأة إلى مكانة لم تَحْظَ بها من قبل فى أوربا ، ويخضع الفارس لها كما يخضع للسيد صاحب الإقطاع ، فالفارس يضحى فى سبيل حبها ، ويبكى فى يُسْرٍ حين يهدده الخطر فى حبه ، ويعد ضعفه أمامها نُبْلاً وسموًّا لا استكانة فيه ولا شرر يسببه ....» إلى أن يقول الدكتور الفاضل[2] :

«والقرائن التاريخية تحمل على الاعتقاد أن هذا الإدراك للحب على نحو فريد فى الآداب الأوربية إنما ظهر فى تلك الفترة بتأثير حب الفروسية العربى بعد أن أشرب أهله روح الإسلام ، فعبروا فى شعرهم العربى عن عاطفتهم العفة الخالصة .. ومن القواعد التى يذكرها شابلان فى كتابه السابق أن المحب لا يهيم بسوى محبوبة واحدة ، وأن المحب يظهر عليه بهت الخشوع أمام حبيبته ، ويضطرب قلبه بمحضرها ، ولا يقصر فى أى

(١) الأدب المقارن للدكتور هلال : ص ٢٠٥ ط ٣ .

(٢) فى ص ٢٠٨ .

مطلب تريده منه حبيبته ولو تحمَّلَ فى ذلك المشاق ، وخيالها دائمًا نُصْب عينيه إنْ غابت عنه ، وعليه أن يكتم حبه ، لأن إذاعة الحب سبب من أسباب القضاء عليه ، ثم عليه أن يكون كريمًا غير بخيل ، إذ الكرم صفة جوهرية لعاطفة الحب الصادق ، وهذه كلها كما نعلم يفيضُ بها الشعر العربى ، وينص عليها كل من تعرضوا لدراسة هذه العاطفة من القدماء ، ومنهم محمد بن داود ، وابنُ حزم » .

وإذا كان لطوق الحمامة – وما نحا نحوه من كتب العرب – هذا التأثير النَّفاذ فيما اتصل به من الآداب ، فإن الحديث عنه هنا محتوم مفروض .

★★★

لم يكن ابن حزم بِدْعًا بين الفقهاء فى مقاساة الحب ، ولا بين الكُتَّاب فى الحديث عنه ، والتأليف فيه ، فنحن نعلم عن كثير من الفقهاء والمحدثين ضروبًا من الحب العذرى الصادق ، وقد يكون هذا مستغربًا لدى من يظنون التفقه فى الدين والتنسُّك فى العبادة ، مما يمنع خفوق القلب بالهوى ، والتهاب الجوانح بالشوق ! وهذا خطأ واضح ، لأن العواطف الإنسانية لا تكبت بدراسة الفقه والتفسير والحديث ، ولكن هذه الدراسة فقط مما يساعد على إعلاء الغرائز وسُمو العواطف ، فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالبًا من الأديب العاشق ، لأن له من فقهه الدينى وإحساسه بمكانته فى المجتمع ما يسمو به عن الريبة والظن ، هذا إلى ما يغرسه الإسلام لدى الصادقين من رجاله من طموح إلى الكمال وارتفاع عن النزوات ، فإذا وقع أحدهم فى غمرة الحب فإن له من مبادئه ما يهديه إلى التصوُّن والكرامة والعفاف ، وقد يجد العاشق المتحلل منفذًا غير كريم إلى ارتوائه ، فتهدأ عاطفته ، ويسلو وجده ، أما الفقيه المتنسك فلن يقترف ما يغضب الله ، فيظل عفيفًا طاهرًا على وجده المضطرم ، وإحساسه المشبوب ! وقد تلج به الأشجان حتى تصل به إلى الولَه السقيم ، وهذا ما كان لذوى الصبابة من الفقهاء .

لا عجب إذن أن يكثر الحب العذرى فى تاريخ الفقهاء ، وهم قوم ذو تصون وعفاف ، بل إن العجب ألاَّ يكون ، مع ما يحملون من قلوب خفاقة وعواطف رقيقة ،

ووجدان مشبوب .. إننا نجد جماعة من الفقهاء فى الصدر الأول من الإسلام يشتهرون بالصبابة، ويترنمون بالشعر ، حتى اشتهروا بالخفة والظرافة ، وضُرب بهم المثل فى ذلك، فقيل : «أظرف من فقيه » .. هذا عروة بن أذينة الفقيه المحدِّث ، وشيخ مالك بن أنس ، يقول :

إن التى زعمت فؤادك مَلَّهَا ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأَجَلَّهَا
منعت تحيتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّهَا
فدنا وقال لعلها معذورةٌ ... فى بعض رقبتها فقلت لعلها

ويقول فى قصيدٍ مؤثر :

إذا وجدتُ أوارَ الحبِّ فى كبدى ... عمدتُ نحو سقاء الماء أَبْتَرِدُ
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنارٍ على الأحشاء تتقد؟

وهذا عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أحد الذين انتهى إليهم العِلْمُ بالمدينة على عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان أمير المؤمنين يقول فيه : لمجلس ابن عبد الله أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها ! هذا عبيد الله يقول :

كتمتُ الهوى حتى أَضَرَّ بك الكتْمُ ... ولا مَكَ أقوامٌ ولومهمُ ظلمُ
وزادك إغراء بها طول بخلها ... عليك وأبلى لحم أعظمك الهَمُّ
ألا مَنْ لنفسٍ لا تموت فينقضى ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعمُ
تجنبتَ هجران الحبيب تأثُّما ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثمُ
فَذُقْ هجرها قد كنتَ تزعم أنه ... رشادٌ ألا يا ربما كذب الزعمُ

وهذا عبد الرحمن القس ، وأبياته أشهر من أن تُذكر ، وهذا سِواهُ وسواه فى فجر الإسلام ، وهم كثير.

على أن أشهر من كتب من الفقهاء قائمًا بذاته فى الحب هو محمد بن داود الظاهرى صاحب كتاب الزهرة ، وابن حزم صاحب الطوق ، وقد احتذاهما بعد ذلك مؤلفون .. والثابت المجزوم به أن ابن حزم قد قرأ كتاب الزهرة وتأثر به ، فقد أشار إليه فى الطوق ، وكان كتاب الزهرة من الذيوع فى الأندلس بحيث عارضه أبو عمر أحمد بن فرج الجميانى بكتاب سماهُ «الحدائق» – ضاع ولم يصل – ألفه للحكم المستنصر بالله ، وقال عنه ابن دحية فى المطرب[1] :

«.... وعارض به كتاب الزهرة لأبى بكر بن محمد بن داود بن على الأصبهانى ، إلا أن أبا بكر إنّما ذكر مائة باب فى كل باب بيت ، وأبو عمر أورد مائتى باب ، فى كل باب بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئًا » . هذا إلى كتابات إخوان الصفا فى رسائلهم عن العشق ، وأبى بكر السراج صاحب مصارع العشاق ، والخرائطى صاحب اعتلال القلوب ، وكلهم قد سبق ابن حزم ، ولكن الرائد الأول هو محمد بن داود ، وتلاقى كتاب الزهرة مع كتاب الطوق فى أكثر من وجه يلفتنا إلى الحديث عنه فى مجالى المقارنة والتأثير .

كانت ظروف ابن داود غير ظروف ابن حزم ، فالأول حَيِىٌّ رقيق ، خجول ، تُزعجه الهمسة ، وتضايقه الإشارة واللفتة ، نشأ فى أسرة فقيرة شريفة ، فأبوه إمام المذهب الظاهرى ببغداد ، كان يأكل من كَسْب يده على ندرة وكفاف ، وقد عرف ذلك بعض مقدريه ، فأهداه بدرة ثمينة من الدنانير ، فرفضها فى إباء ! وَولَدهُ منذ صغره ضعيف رقيق ، يذهب إلى «الكُتَّاب» مع الصبية ، فإنْ تَنَدَّرَ عليه زميل بكلمة أوجعته وأسالت دمعه جاء إلى والده شاكيًا ! ثم مضت به السنون ، فمات أبوه ، وتبوأ كرسيه فى رئاسة المذهب الظاهرى بعده ، ومازال على رِقَّة قلبه ، ورهافة حسه ، وانفعال وجدانه ، وثورة عاطفته ، حتى ابتلاه القدر بهوى عاصف ! .. وقد تعرض ابن داود لعواصف الهجر ، والغضب ، والوشاية ، والرقابة ، والعزل ، فتمرّس بأحاسيس عنيفة ألهمته

(١) المطرب لابن دحية ص ٤ .

كثيرًا من المقطوعات الشعرية ، وأمدته بعواطف وجدانية شفافة سطرها فى كتاب الزهرة ، فكان تجربة ذاتية لعاشق مسكين !

أما ابن حزم فيشترك مع ابن داود فى أنه أحد أئمة المذهب الظاهرى مثله ، وأقوى المدافعين عنه بلسانٍ صارم ، ومنطق قوى ، وعارضة ذات صيال ومجالدة ، ولكنه يختلف عن صاحبه فى كثير ، لقد نشأ فى بيئةٍ مترفة منعمة ، فأبوه وزير خطير ، تمتلىء قصوره بمغريات الأنس ومفاتنه ، وضروب النعيم وأفانينه – من مأكل ومشرب وملبس ، ومنظر وملمس ، ومشم ومنتزه – هذا إلى الجاه المؤثل ، والكلمة المسموعة ، والصيت المدوى .. ولم يذهب إلى «الكُتَّاب» مع الصبية كما كان ابن داود ، بل تلقى الدراسة الأولى على المثقفات من جوارى القصر ، علمنه الكتابة والحساب ، وحَفِظَ على أيديهن القرآن والحديث ، ورأى أشباههن الناعمات المتنعمات يرفلن فى قصر أبيه بين الزخارف والرفارف ، والحرير والديباج ، والفل والريحان ، فى مجالس للأنس واللهو والطرب ، ترن بالشعر ، وتصدح بالأوتار والعيدان !

فَخَبَرَ الحسانَ خبرةً وافية فى صباه ، وأحبَّ وعشق ، وقاطَع وواصلَ ، مع أنه لم يرفع ذيله على حرام – كما أقسم على ذلك بأغلظ الأيمان – ثم سطر كتاب الطوق ، فأودعه ذكرياته وتجرباته ، وقَدَّمَ لنا أثرًا عاطفيًّا يُقْرَأُ على مدى الأجيال فى تقدير وإعجاب ...

تحدث ابن داود فى الزهرة عن الحب ، فألمَّ بأقوال الفلاسفة فيه ، وروى عن جالينوس وبطليموس ، ووصفَ سبيل الهوى إلى القلب ومسلكه إلى النفس ، وقَدَّرَ أثر السماع ، وتنقل فى خطوات الحب : من استحسان ، إلى مودَّة ، إلى محبة ، إلى خلَّة ، إلى عشق ، إلى تتيم ، إلى تَدَلُّه ، مستشهدًا بالشعر له ولغيره من كبَار المدنفين ، وله تعليقات طريفة عند كل مقطوعة ، وملاحظات نفيسة بارعة لا تخلو من طرافة وإبداعٍ ، فالحبيب إذا استيقن ود حبيبه «استغنى عن التعرُّف ، وارتفعت حاجته » .

والمحبُّ يُؤْتَى من مَأْمَنِهِ ، «فالتصنُّع الشديد يخرج عن العادة فيوقع التهمة بصاحبه»[1].

أما حديثه عن الحجاب والرقيب والعذول والواشى وصنوف الهجر فنمط من الملاحظة والدقة ، وله خطرات شفافة تتجلى فى مثل قوله :

«إن المعتذر لا ينفك من إحدى حالين : إمَّا أن يكون صادقًا أو كاذبًا ، فإن كان صادقًا فعذره مقبول ، وإن كان كاذبًا فإنه لم يتجشم مضاضة الكذب فى نفسه إلا لنفاسة صاحبه فى صدره ، ومن كان بهذه الحال قُبِلَ عُذره ، بل وَجَبَ شكره ! »[2].

ويروى هذه الأبيات عن لحظات العيون فى حضرة الرقيب :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق ... كلامًا تكلمنا بأعيننا سرًّا
فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجة ... ولم تظهر الشكوى ولم نهتك السترَا
ولو قذفت أحشاؤنا ما تضمنت ... من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرًا

ثم يعلق عليها بهذا القول البديع : «صاحب هذا الشعر البائس مُغْتَرٌّ بالزمان ، جاهل بصروف الأيام ، يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب ، وهو لا يعلم أن هذه الحال تتقاصر عنها الآمال ، وتنقطع دونها الآجال ، ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجر ، ولم يتعرض للخيانة والغدر ، حَسِبَ أن الرقيب هو منتهى كيد الدهر ، وظَنَّ أنه امتُحِنَ بما لا يقوم له الصبر»[3] .

ويلاقى من بلاء الإخوان وكارثات النميمة والوشاية ما يوقعه فى اليأس ، حتى يضطر إلى التمسك بالمنافقين ! وهذا أمر يستغربه من لم يقرأ كلام ابن داود ، ولكنه يلمس وجهة نظره سافرة واضحة حين يسمعه يقول :

---

(١) ص ٣٢٢ .
(٢) ص ٥٧ .
(٣) ص ٩٢ .

«واعلم – أدام الله تأييدك – أن المرتضين من الإخوان معدومون فى هذا الزمان ، وإنما بقى قوم ينتصفون ولا ينصفون ، إن بسطتهم لم يهابوك ، وإن أحشمتهم اعتابوك ، وما دامو لك راجين أو خائفين فهم لك منقطعون ، فإذا زايلوا هاتين الحالتين لم يرعوا لك إخاءً ، ولم يعتقدوا لك وفاءً ، فإذا ظفرت بمنافق فتمسك به ، فإن على كل حال خير من غيره ، لأنه يظهر لك ما تُسَرُّ به ، وإن كان يضمر خلافه بقلبه»[1] .

وقد يشتط كثيرًا فى محاسبة غيره ، كما نقد المجنون فى قوله :

يلومُـــك فيهـــا اللائمـــون نـــصاحةً ... فليـــت الهـــوى بـــاللائمين مكانِيَـــا

لـو أن الهـــوى عن حـــب ليلى أطاعنى ... أطعـــتُ ، ولكن الهـــوى قد عصـــانيا

حيث يرى ابن داود أن «هذا الكلام لا يكون إلا عن حال ضعيفة ، أو يعقب ضجرة شديدة ، لأن صاحبه لم يرض بالتبرم من هواه حتى ضم إلى ذلك تمنى انصراف الحال إلى سواه » .

ولست مع الناقد فى رأيه ، لأن كل إنسان يتمنى لنفسه السلامة ، وهو فى أعماقه لو تبين نفسه تبينًا صادقًا لعرف ذلك منها ، أما أنه يتمنى انصراف الهوى للائمين فإحساس فطرى صادق يغلب على كل إنسان يرى مُجادله يعنفه بدون أن يستشعر إحساسه ، ولن يقنعه بيانٌ مَّا مهما أكدته الحجج ، فلم يبق إلا أن يذوق ليحس ويستشعر!

ومهما يكن من شىء ، فقد كان كتاب «الزهرة» أول مُصَنَّفٍ بقى بأيدينا فى موضوعه ، والفرق بينه وبين «طوق الحمامة» فرق ما بين المبتدىء والمعقِّب ، فإذا كان قانون التطور والارتقاء يرى فى الزهرة غرسًا صغيرًا فى تربة جديدة – لأن مؤلفه نقل عن نفسه وعن غيره ، وجَمَعَ من هنا وهناك ، وقد تعوزه الوحدة والإطراد وشمول الملاحظة

---

(١) ص ٢ .

– فإن هذا القانون نفسه يرى فى كتاب الطوق ثمرة يانعة آتت أُكلها بتوالى الزمن على يد قاطفٍ ماهرٍ أحسنَ السَّقْىَ ووالى العناية حتى تهدلت الأفنان ، وجاء كتابه صورة مكتملةً لإحساس قوى نفاذ .

كان ابن حزم آية من الآيات بين أقرانه وأنداده ، فالرجل عالم ضليع ، متمرس بالجدل ، متقدم فى المناظرة والحجاج ، ينافح عن مذهب قَلَّ أنصاره وكثر مناوئوه ، ويتعرض لأئمةٍ عظام متقدمين سار لهم فى التاريخ ذِكْرٌ ، وفى النفوس مهابة وإجلال ، فيكر على أمثال أبى حنيفة والشافعى ومالك والأشعرى وأئمة الاعتزال بما يجبه آراءهم ، وينقض حججهم ، معتصمًا ببرهانه النافذ ، ودليله المكين ، ولعله لم يتجه إلى تأييد مذهب الظاهرية إلا حين رأى بعض معاصريه من الفقهاء ينزلون على آراء الملوك والرؤساء ، فيئولون النصوص ، ويتعسفون الدليل ، وفى ذلك فساد للشريعة ، ووهن فى الخلق ، فربأ بنفسه أن يسكت عن هؤلاء المغرضين ، وقد ملكوا الدنيا بالأندلس بمذهب مالك ، وقسموا الأموال بابن القاسم ، وانبرى لمنازلة أئمة المذاهب المختلفة جميعًا – سوى مذهبه الظاهرى – من أحياء وأموات ! ولسنا نزْعم أن الحقّ مع ابن حزم فى جميع ما حاورَ وأفتى ، فأئمة الإسلام معروفون بحسن الاستدلال ونزاهة الرأى ، وما أصدروا أحكامهم دون تعقل واستقراء ، ولكننا نوضح أنفة ابن حزم وحميته حين اعتنق مذهبًا رأى فيه الصواب ، فأبطل القياس وتمسك بالنص .

هذا الإمام الذى كتب أربعمائة مجلد فى الفقه والتفسير ، والمِلَلِ والنِّحَلِ ، والأخلاق والتاريخ ، ولم يَفُقْهُ فى كثره التأليف من رجال الإسلام غير ابن جرير الطبرى رحمه الله ، لم ير مانعًا أن يسجل تجاربه الذاتية فى دنيا الصبابة ، غير عابئٍ بافتراءات خصومه على كثرتهم الكاثرة .. هؤلاء الذين أَلَّبُوا الرؤساء عليه ، فكان يرحل من بلد إلى بلد فرارًا بنفسه ، حتى أُحْرِقَتْ مؤلفاته بمسمعٍ منه ، فما وهن أو استكان ، بل نظم أبياته السائرة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى تَضَمَّنَهُ القرطاس إِذْ كان فى صدرى

هذا الداعية المنافحُ الأَلَدُّ قد أصدر «طوق الحمامة» ليطلع الناس على خفقات الأفئدة، ورجفات الضلوع ، فكان نسقًا جميلاً من القول ، كشف الستائر عن نبضات تدق بها القلوب ، وجذوات تشتعل بها الدماء .

ترى قوة الملاحظة لدى ابن حزم فى تحليل الوقائع ، وتشريح الحوادث ، وتلمس يقين القول فى الاعتراف المخلص ، والشهادة الصادقة ، وتدرك لطافة الحس وصفاء النفس فى استشفاف البواعث المستترة ، وتفسير الحركات العارضة ، وتصوير الانفعالات المتتابعة ، مما يجعل طوق الحمامة مزيجًا من المذكرات الشخصية ، والتحليلات النفسية ، وتصوير المجتمع الأندلسى فى أرقى مستوياته وأرفع طبقاته ، فهو كتاب أدب ، وعلم نفس ، واجتماع ، وتاريخ ، وهو بهذه النفاسة الطريفة أهلٌ لما أحدثَ فى الشرق والغرب من تأثير وإيحاء .. يتحدث عن علامات الحب فيذكر منها إدمان النظر ، والإقبال بالحديث، والإسراع بالسير نحو مكان الحبيب ، والتعمد للقعود بقربه ، والبهت والروعة عند رؤيته مفاجأة ، والتكارم والتشجع أمامه ، وكل هذه من الأمور المدركة التى يعرفها ابن حزم وسواه ، ولكن ما يبهرنا من ابن حزم أن يمهد بها مع اتساع فى الوصف إلى العلامات المضادة ، فيكشف خبايا النفوس ، ويزيح الأغطية عَمَّا لا يراه سوى الأَلِبَّة الحصفاء ، فينص على أن الْمُحِبَّيْنِ إذا تكافآ فى المحبة وتأكدت بينهما تأكُّدًا شديدًا يتخاصمان ، ويتناقشان ، ويتتبع كل منهما ألفاظ صاحبه ، ويُؤولها على غير معْناها ، ليبدو لها من ذلك ما يكشف عن دخيلة حبيبه .. ثم يقول ابن حزم : «والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجر والمضادة المتولدة عن الشحناء هو سرعة الرضا ، فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا تقدره يصلح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة ، وأُهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحَكَة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مرارًا ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنَّكَ رَيْبٌ البتة ، ولا تَتَمار فى أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا ، واقطع عليه قطع من لا يصرفه صارف ، وقد رأيته كثيرًا »[1] .

(١) طوق الحمامة لابن حزم ، ط المستشرق بتروف ، سنة ١٩١٤ ص ١٤ .

وقد كانت نشأة ابن حزم الأولى بين جاريات القصر وحسانه ، ومشاهدته ضروب العلاقات بين الفتيان والفتيات ، ومزاولة هذه التجارب بنفسه أعوامًا طويلة ، مما أعانه على أن يضع أحكامًا عاطفية لا تخطىء ، فهو يسن من الأقوال ما يظل قانونًا عامًّا يُطبَّقُ بين الناس ما بقيت قلوب وعيون . وتراه يتحدث عن الإشارة بالعين ، فيرى أن اللحظ المتبادل يُقطع به ويتواصل ، ويوعد ويهدد ، وينتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الوعود ، ويُنبه على القريب ، ويضحك ويحزن ، ولكل واحد من هذه المعانى ضرب فى هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا ما تيسر ، «فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة نَهْيٌ عن الأمر ، وتفْتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسرُ أنظارها آية الفرج ، والإشارة إلى أطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه ، والإشارة الخفية بمؤخر العين سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المآق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام[1] » . أرأيت دقة فى الملاحظة ، وعمقًا فى التفسير ، وبراعة فى التأويل أنفذ من هذا السياق الصريح ؟ وهل يتسنى ذلك لغير داهية خبير ؟

أما تصويرهُ النفسى لخبايا النساء فمن أجمل ما كتب فى موضوعه الدقيق ، فابن حزم يفهم نفسية المرأة كما يفهم نفسية الرجل ، ويرى موقع القوة والضعف لدى الجنسين ، فلا يجور فى حكمه متعصبًا للرجال ، بل يصف المشاهد الملموس كما كان .. يتحدث عن المساعد المعين من الإخوان على الشوق والشجن ، فيرى التنفيس عن الصدر بالبث ، والشكوى للرفيق الأمين مدعاة للراحة والاطمئنان ، وبعض العشاق يفقد الصديق الأمين على السر الحافظ للغيب ، فيضيق بأشجانه وينفرد بنفسه فى المكان النازح عن الأنيس ، يناجى الهوى ، ويكلم الأرض ، ويجد فى ذلك راحة المريض فى التأوه ، والمحزون فى الزفير ، يقول ابن حزم : «وما رأيتُ الإسعادَ أكثر منه فى النساء ، فعندهن

(١) الطوق ص ٢٩ .

من المحافظة على هذا الشأن والتواصى بكتمانه والتواطؤ على طيه إذا أطلعن عليه ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفتْ سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة ، مرمية عن قوس واحدة ، وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا فى الندرة ، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن ، فانصرف الإشفاق محضًا إلى غيرهن ... وإنك لترى المرأة الصالحة الْمُسِنَّةَ المنقطعة الرجاء من الرجال أحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحليّها لعروس تعلمه[1] ».

وقد يحدث أن يجمعك برفقائك مجلس عام وتريد أن تتحدث إلى زميل من الرفقة بحديث خاص تلمح إليه دون أن يفهم أحد سواه ، فيرد عليك بما يناسب قولك فى تحفظ واحتياط .. هذه حالة ملحوظة بين الناس ، ولكنها تحتاج إلى لباقة حصيفة بين المتحابين بنوع خاص ، لأن الحب كان ولا يزال مدعاة الريب ومثار الظنون ! ونفوس الجلاّس لا تشغل بمسائل الكسب والطعام والشراب شغلها بمسائل الحب والوصال ، فهى إلى إشارات المحبين أجذب ، وعلى تفسيرها أحرص ، وهذا يتطلب من العاشِقَيْنِ لباقةً سريعة فى إيصال ما يريدان ، فإذا بلغا مقصوديهما فى إخفاء استشعرا سرورًا وبهجة لا يوصفان ! وقدْ رصد ابنُ حزم هذه الظاهرة اللطيفة بمرصده اللاقط ، وشرحها ببيانه الرائق إذ قال :

«ومن التعريض بالقول جنس ثان ، ولا يكون إلا بعد اتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذٍ يقع التشكى ، وعقد المواعيد والتعديد ، وإحكام المودَّات بالتعريض ، وبكلامٍ يظهر لسامعه معنى غير ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام على حسب ما يتأدى إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما ، إلا مَنْ أُيِّدَ بحسٍّ نافذٍ ، وأُعِينَ بذكاءٍ ، وأُمِدَّ بتجربة[2] » .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦ .

(٢) الطوق ص ٢٨ .

وشبيه بذلك قوله : «وقد شاهدتُ من هذا المعنى كثيرًا ، وإنه لمن المناظر الباعثة على الرقة الرائعة المعنى ، لا سيما إن كان هوى يكتتم به ، فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبة ، وخجلته بالخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهة ، وتخيله فى استنباط معنى يقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجبًا ولذة مخفية لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل[1] » .

ومعدن البراعة فى بيان الكاتب النفسى أنه يحدثك أحيانًا عن مشاعر واضحة ملموسة لدى أكثر الناس ، ولكنه ينقلها فى طرافة خالبة ، يخيل إليك معها أنك تحسها لأول مرة ، وأنك لا تعرف عنها ما يريد أن يقول .. وابن حزم من أبرع هؤلاء الواصفين ، فهو كثيرًا ما يُحدثك عَمَّا تعهد وتعرف ، وإن لحديثه لحلاوة تأخذ عليك مجامع إحساسك، وتلك رسالة الفن الأدبى حين تكون الألفاظ به إعادة تجارب ، ورجع صور للعين ، وغناء للسمع ، ونشوة للروح ، وطربًا للفؤاد ! استمع من هذا إلى قوله الرائع :

«هلْ شاهد مشاهد ، أو رأتْ عين ، أو قام فى فكر ، ألذ وأشهى من مقام قام عنه كل رقيب ، وبعد عنه كل بغيض ، واجتمع فيه مُحبان قَدْ تصارما لذنب وقع ، فابتدأَ المحبُّ فى الاعتذار والخشوع والتذلل ، والإدلاء بحجته الواضحة بين الإدلال والإذلال ، والندم بما سلف ، فطورًا يدل ببراءَتِهِ ، وطورًا يريد العفو ويستدعى المغفرة ، ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوبُ فى كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقهُ اللحظ الخفىُّ ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخفيًا لتبسمه ، وذلك علامة الرِّضَا ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ، وذهاب السخط ، وقبول العتاب ! هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة ، ولقد وَطِئْتُ بساطَ الخلفاء ، وشاهدتُ محاضرَ الملوك ، فما رأيتُ هيبةً تعدل هيبة محبَ لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

الوزراء، وانبساط إلى مُدبّرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحًا وأعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده . ووثق بميله إليه ، وصحة مَوَدَّتِه له ، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذلَّ من موقف محب هيمان بين يدى عاشق غضبان قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنتُ الأمرين ، وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد ، وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الحالة الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لوْ نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح ، وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفتن فى القول فنونًا ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى[1] » .

هذا قولُ مجرّب امتحن الأمريْن ، وذاق الحالين ، لذلك كانت اعترافاته القلبية فى طوق الحمامة صورًا واقعية لها دلالتها الخاصة عند ذوى التحليل والتعليل من أطباء النفوس وخبراء القلوب .. وإذا كان لكل عاشق مزاجه الشخصى وميله الذاتى ، فإن ابن حزم حين يقدّم هذه الاعترافات لا ينسى ذلك ، فهو يذكر عن نفسه ما يتفق فيه مع غيره، وما يخالف فيه دون أن يجبرنا على التزام طريقته ، وحسبه أن يصدر عن حسه الصادق فقط ، وإن كان فى بعض الأحيان يعجب لمن يخالف طريقته وينأى عن منحاه ، فهو مثلاً لا يحب من نظرة واحدة ، بل لابدّ من عِشْرةٍ واختبار ، وسواه يقع فى شرك الهوى عن وجه سريع ، وذلك ما لا يرضيه ، بل يعده ضربًا من الشهوة ، ويفصل ذلك فيقول :

«وإنى لا أطيل العجب من كل مَنْ يَدَّعِى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضربًا من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكنًا من صميم الفؤاد ، نافذًا فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والشوق ، فما نسيت ودًّا لى قط ، وإن حنينى إلى كل عهد تقدم

(١) الطوق ص ٦٦ .

ليغصنى بالماء ويشرقنى بالطعام ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللتُ شيئًا قط بعد معرفتى به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائى له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى منذ كنت ، لا أقول فى الأُلاَّف والإخوان وحدهم ، ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعتُ بعيش ، ولا فارقنى الإطراق منذ ذقت طعم فراق الأحِبَّة ، وإنه لَشَجىً يعتادنى ، ووقوع هم ما ينفك يطرقنى ، ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش استأنفه ، وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال ، وفى ذلك أقول شعرًا :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ... ولا وريتْ حين ارتياد زنادها
ولكن على مَهَلٍ سَرَتْ وتولدتْ ... بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يَدْنُ منها غرسُها وانتقاضها ... ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكدنا أنا نرى كل نشأة ... تتم سريعًا عن قريب نهادها
ولكننى أرض عزاز صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها إليها عروقها ... فليست تبالى أن يجود عِهادها

ولعمرى لقد حكم ابن حزم عن تجربته حين لم يعلق به هوى دون عِشْرَة ملازمة وطول اتصال ، لأن ظروف نشأته فى قصور أبيه - وفيها الكثيرات من الجوارى الإسبانيات وسواهن ممن يتبادلن الزيارة من عِلْيَةِ الأُسَر - قد مهدْت له سبيل الاختيار والاختبار ، فالحسان من حوله فى كل مكان ، وبقاؤهن معه هين بدون حجاب ، ولا كذلك المحروم الذى تحتم عليه نشأته ألا يعرف شيئًا عن حواء ، حتى إذا سنحت له فرصة خاطفة عشق من أول نظرة ، هذا كثير فى الحياة ، وليس لابن حزم أن يعجب منه ، فلو صادف من الجدب والخواء والحرمان ما صادف هذا المتسرع العجول لحاكاه ، وقد تقدمت أبيات ابن حزم فى اتئاد المحبة وتولدها بطول امتزاج حتى استقر عمادها ، وهى أبيات جيدة رائعة ، وَقَلَّما تُستجاد أبيات ابن حزم فى «طوق الحمامة» ، لأنه ينظم فى كل

موضوع عن كل موقف له أو لغيره ، وفى نَظْمِهِ سرعة عاجلة لا تسلس له قياد العذوبة والرقة ، فترى أبياته – غالبًا – ذات ثقل وجفاف ، وهى وحدها أضعف ما فى «طوق الحمامة» من سطور .. وماذا عليه لو أعرض عن تسطيرها واكتفى بالتحليل والاعترافات ؟ أيظن هذا العالم الأصولى الفقيه النظار الكاتب المفسر أنه شاعر كبير ؟

ويوقعنا الإمام فى حيرة حين يتحدث عن بعض معشوقاته فيروى قصتها ، وتأتى الخاتمة بالفراق – رحيلاً أو موتًا – فيعلن أنه لم يَسْلَهَا للآن ، وأنه دفين الأسى بين أهل الدنيا ، وقتيل الهموم فى الأحياء ، وما طاب له عيش بعدها ، ولا أَنِسَ بسواها ، ثم يروى بعد ذلك عن غيرها ، وما كابد فى حبها ! أيكون قد جمع فى قلبه بين حب الراحلة وحب الطارئة ، فكان صادقًا بينه وبين نفسه حين حَنَّ إلى الأولى واستطاب الثانية؟ هذه حالة نفسية لا تعد غريبة ، ومن الجائز أن تقع ، والذين يجزمون بخلوص القلب لواحد فقط إنما يعبرون عن أنفسهم ، وليس لهم أن يتكلموا عن جميع الناس ، فإن العواطف البشرية من الامتزاج والاختلاف والغموض أبعد من أن يندرج عليها حُكم عام ، ولنا أن نُنْصف ابن حزم ، فنذكر أنه قال ذلك عن حبيبته «نعم» ، ولعلها كانت آخر من أحب ، فلهجته فى الحديث عنها توحى بذلك إذ يقول :

«لقد كنت أشد الناس كَلَفًا ، وأعظمهم حبًّا بجارية لى كانت فيما خلا ، اسمها «نعمُ» ، وكانت أُمنيةَ المتمنى ، وغايةَ الحسن خَلْقًا وخُلُقًا وموافقةً لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدارُ ، واخترمتها الليالى ومرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسِنِّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمتُ بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقِلَّة إسعادها ، وعلى ذلك ، فوالله ما سَلَوْتُ حتى الآن ، ولو قيل فداء لفديتها بكل ما أملك من تَالدٍ وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة عَلَىَّ مسارعًا وطائعًا ،

وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيتُ ذكرها ، ولا أَنِسْتُ بسواها ، ولقد عفى حبى لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده ، ومما قلتُ فيها :

مهذبةٌ بيضاءُ ، كالشمسِ إنْ بَدَتْ ... وسائر رَبَّاتِ الحِجَالِ نُجومُ
أطارَ هَواهَا القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ ... فبعدَ وقوعٍ ظَلَّ وَهْوَ يحومُ[1] » .

وقد ذاق هذا العاشق الدائب مرارة الإعراض كثيرًا ، ولاَقَى ألم الحرمان والنفور حتى أعيته الحيل ، وبذل جهد الطاقة فى التقرب فما بلغ حاجةً ، أو بَلَّ غليلاً ، وهو يروى قصته فى ذلك مسهبًا مكثرًا ، فجاءت اعترافاته عنها حيّة نابضة ، تصور تيارات من اللوعة والإشفاق ، والأسف والاشتياق ، وسأنقلها هنا للقارىء لأختتم بها حديث هذا المحب الظريف .. قال ابن حزم :

«وأخبرُك عنى : أنى أَلِفْتُ فى أيامِ صباى - ألفةَ المحبة - جاريةً نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عامًا ، وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها ، وعفافها وطهارتها ، وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة العقود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا مغرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طاردٌ من أَمَّهَا ، تزدان فى المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحسانًا جيدًا ، فجنحت إليها ، وأحببتها حبًّا مفرطًا ، فسعيت عامين - أو نحوهما - أن تجيبنى بكلمة وأسمع مِنْ فِيهَا لفظةً غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السَّعْيِ ، فما وصلت من ذلك إلى شىء البتة ، فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ، ودخلة أخى رحمه الله ، من نسائنا ونساء فتياننا ، ومَنْ لاَذَ بنا من خَدمنا ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرًا من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت فى

(١) طوق الحمامة ص ٨٥ .

دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصِها[1] ، متفتحة الأبواب ، فَصِرْنَ ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فإنى لأُذْكُرُ أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أُنْسًا بقربها ، مُتَعَرِّضًا للدُّنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى سارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كَلَفِى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كُنَّ عددًا كثيرًا ، وإذا كلهن يَتَنَقَّلْنَ من باب إلى باب ، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها .. وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار . ثم نزلت إلى البستان ، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فَأَمَرْتها ، فأخذتِ العُودَ وسَوَّته بخفر وخجل لا عهد لى بمثله ، وإنَّ الشىءَ يتضاعف حُسنه فى عين مستحسنة ، ثم اندفعتْ تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنِّى طَرِبْتُ إلى شمسٍ إذا غربتْ ... كانت مَغارِبُهَا جوفَ المقاصيرِ
ليستْ من الإِنْسِ إلا فى مناسبةٍ ... ولا مِنَ الجِنِّ إلاَّ فى التصاويرِ

فلعمرى ، لَكَأَنَّ المضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلتُ إليه من التمكن فى رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

مَنَعْتِ جمالَ وَجْهِكِ مُقْلَتَيَّا ... ولفظُكِ قد ضَنَنْتِ به عَلَيَّا
أراكِ نَذَرْتْ للرحمنِ صَوْما ... فلستِ تكلِّمين اليوم حيَّا
وقد غَنَّيْت للعباسِ شعرًا ... هنيئًا ذا لِعَبَّاسٍ هنيَّا
فلو يلقاك عباسٌ لأضْحَى ... لفوزٍ قَالِيًا وبِكُمْ شَجِيَّا[2]

(١) الفحوص : الأودية والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة .
(٢) الطوق ص ١٠٥ .

ويمضى ابن حزم فى القصة إلى نهايتها .

وبعد ، ألا يكون طوق الحمامة بتحليله النفسى ، وأسلوبه الأدبى ، ومدلوله الاجتماعى ، وهواه العذرى ، جديرًا أن يُحدث دويه ، فتهب منه على آداب الشرق والغرب نسمات الطهارة والعفة ، ممزوجة بعبير الجلال والجمال ، ولهذا وجد موضعه فى حديث التأثر والتأثير ؟!

★★★

obeikandl.com